

هيئة التحرير | Editorial Board

عرض كتاب:

الاستشراف الإستراتيجي قيد العمل

Book Review:
Strategic Foresight in Action

المؤلف: فيليب دورانس (محرر) (Philippe Durance (Ed.))

الكتاب: الاستشراف الإستراتيجي قيد العمل

العنوان الأصلي (بالفرنسية): La prospective stratégique en action

الناشر: أوديل جاكوب - باريس

سنة النشر: 2014

عدد الصفحات: 399 صفحة

جمع هذا الكتاب الصادر حديثاً بين دفتيه مساهمات 25 متخصصاً في مجالات معرفية متعدّدة لها امتدادات خصبية في مجال الاستشراف، ولهذا يمكننا أن نعدّه كتاباً مرجعياً بامتياز، فهو يضمّ مساهمات أغلب أولئك الذين أدوا أو يؤدّون دوراً مهماً في بلورة "المدرسة الفرنسية للاستشراف"، على مدى العقود الثلاثة الماضية. ومن المفيد - في سياقنا العربي وثقافتنا الذاتية وخصوصياتها - عرض قصة هذا الكتاب المتعلقة بحدث تقاعد عالم الاستشراف الفرنسي ميشيل غودي من المعهد الوطني للفنون والحرف المتعلّقة بحدث تقاعد عنه ورشة عمل تُتوّج بنشر كتاب في مجال الاستشراف الإستراتيجي. ومن ثمّ، جاءت مساهمات جميع أولئك الذين ودّوا تكريم ميشيل غودي، لترسم الخطوط العريضة لهذا الكتاب على النحو التالي: تقييم أربعة عقود من ممارسة الاستشراف؛ تعميق بعض المبادئ الأساسية للاستشراف؛ البرهنة على جدوى مناهج الاستشراف وراهنيتها؛ رسم خطوط بعض مسارات للمستقبل.

يمتدّ إذاً نطاق هذا الكتاب ليهمّ جميع أولئك الذين يرغبون في فهم تاريخ المدرسة الفرنسية للاستشراف وديناميتها وتأثيرها، والتي عرفت منذ إنشائها تطوراً مهماً في المؤسسات والمنظمات والأقاليم، سواء في فرنسا أو على المستوى الدولي. وتُعرّف المدرسة الفرنسية للاستشراف نفسها بكونها "عدم انضباط فكري" (Indiscipline intellectuelle). ومن خلال توسيع نطاقها من الإستراتيجية إلى التنمية المستدامة وإلى مجالات عديدة أخرى، تعرف اليوم هذه المدرسة مرحلة جديدة في سرورة نموّها، مرتبطة دائماً بالمهمّة الأصلية التي أوكلتها لنفسها والمتتمّلة بـ "إنارة الفعل الحاضر في ضوء المستقبلات الممكنة والمرغوب فيها".

يتألف هذا الكتاب من خمسة أجزاء متكاملة تعالج مسألة الاستشراف الإستراتيجي من جذورها وتبلورها منذ أربعة عقود إلى آفاقها الحالية والمستقبلية. ولا شكّ في أنّ الجزء الأول المخصّص لهذه التجربة الغنية التي مثّلتها (ومثّلها) المدرسة الفرنسية للاستشراف هو من أغنى أجزاء الكتاب وأكثرها إمتاعاً، إذ يعود، من خلال تجارب كلّ من جاك لوسورن وكريستيان جو وميشيل غودي وهوغ دو جوفنيل وكيمون فالاسكايس، إلى بدايات تبلور هذه المسارات الشخصية نحو الاهتمام بالاستشراف وبروز هذه المقاربات العابرة للتخصّصات التي سوف تؤسّس المدرسة الفرنسية للاستشراف. إنّ عدم الانضباط ضمن تخصّص معرفي محدّد، وتعدّد المقاربات وزوايا النظر، وعدم تنزيه التجارب عن الزلل والخطأ، والارتباط الوثيق بالماضي لرسم خطوط المستقبل، والانطلاق من إشكالات الحاضر ومؤسّساته وبُناها، والارتباط الوثيق بسياسات التنمية والتخطيط الإستراتيجي، هي بعض أهمّ الأفكار التي تنبثق من مختلف هذه المسارات الشخصية الثرية.

وحالما تضع الفصول الخمسة الأولى هذا الإطار التاريخي والتطوّري وتوثّق هذه التجربة الغنية ومساراتها المتوّجة، يبدأ الجزء الثاني من الكتاب بوضع الأرومة المفاهيمية للدراسات الاستشرافية، بدايةً مع أويك بوتيجيرار ومفاهيم التغيّر وعدم اليقين والفوضى والصدفة والحتمية، من الأزمنة

القديمة وحتى الأزمنة السيبرانية الحديثة. فيما يؤصل فيليب دورانس مفهوم الاستشراف لدى كل من المدرستين الفرنسية والأميركية، عارضاً في الآن ذاته لأوجه اختلافاتهما وتناقحاتهما؛ ذلك أن الأولى تعتمد بصفة كبيرة على فصح المجال أمام حرية الفكر والشعور بالقيم في رسم معالم المستقبل، في حين تقوم الثانية، أي المدرسة الأميركية، خاصة على الاستشراف التكنولوجي في المجال العسكري. ومن جهته، يرى جون - فيليب بوتز أن الاستشراف جزء من منظور أوسع يشمل تحليل الأبعاد المعرفية للتبصر والاستشراف الإستراتيجي، ومن ثم يتناول بالدرس والتحليل البعد المركزي في العالم المعاصر وفي المستقبل القائم على المعرفة والأصول غير المرئية: التعلّم التنظيمي، بصفته مكوناً أساسياً من مكونات الاستشراف الإستراتيجي والموقف الاستشراقي. ويكزس مارك موسلي ورفقته البحثية للتمييز المعقد بين أربعة مفاهيم هي: الاستشراف، والإستراتيجية، والتخطيط، والتدبير، من خلال إبراز أوجه تداخلها الشديد طوال تطوّر مدارس الإدارات ونظرياتها خلال النصف الثاني من القرن العشرين، من الفايولية والفوردية إلى التوبوتية ومدارس بيتر دروكير ومايكل بورتر إلى المدارس المعاصرة القائمة على خلق القيمة للمساهم والمسؤولية الاجتماعية والبيئية للشركات. في حين يربط كل من محمد بياض وجون - كلود بولي الاستشراف برؤية المقاول في منظور متّصل يربط بين "الرؤية الإستراتيجية" و"الرؤية الاستشرافية" للمقاول، بصفقتها مفتاح نمو المقاولات والمؤسّسات وتطورها. وفي مساهمة ثانية له في هذا المؤلّف الذي سهر على تنسيقه وتحريره، يؤصل فيليب دورانس طريقة السيناريوهات عند هيومان كان؛ كيف انبثقت في الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وكيف تبلورت بفضل جهد هيومان كان (معيّة أنطوني فينير)، قبل أن تجد لها موطئ قدم بفرنسا في آخر الستينيات، لا سيما مع المؤتمر الدولي حول إعداد التراب الوطني عام 1968، والأعمال الرائدة لكل من جيروم مونود وسيرج أنطوان في العام ذاته، تحت إشراف المندوبية الوزارية لإعداد التراب وجاذبية الأقاليم (DATAR) والمفوضية السامية للتخطيط، قبل أن تعرف هذه الطريقة انتشاراً عالمياً من بداية السبعينيات. ولا يخلو هذا العرض الشيق من نقاش جديد لإشكالية التمييز بين الاستشراف والإستراتيجية.

وبعد أن يرسي الكتاب هذه الطبقة الثانية من التأصيل المفاهيمي، يعرض في جزئه الثالث للحقول العديدة لتطبيقات الاستشراف. وأول هذه التطبيقات يعرضها بيير شابوي وجون مارك بيتا في المجال الزراعي والغذائي، من خلال تجربة شركة (BASF Agro France) لاستشراف مستقبلات استخدام مبيدات الحشرات ومخاطرها، وتقديم ثلاثة سيناريوهات لمستقبل إنتاج القمح بفرنسا في أفق عام 2020. فيما يخصّ التطبيق الثاني إدارة الموارد البشرية، من خلال استشراف الكفاءات المستقبلية من أجل تحديد الأهداف الإستراتيجية للشركات والمنظّمات المعنية. وتعرض ريجين مونتي دراسة حالة شركة دولية في المجال الطبي (Med & Tech) والسيناريوهات البديلة أمامها في أفق 2018/2015. ويتناول مارك موسلي تطبيقات تقنيات الاستشراف في مجال السياسات العامة، وتقنيات استكشاف المستقبلات

الممكنة وبناء السيناريوهات البديلة، واتخاذ القرار في ظلّ عدم اليقين. في حين يتناول فانسون باسيني حالة تنمية الأقاليم التي تُعدّ من بين المجالات الأكثر تطبيقاً للتقنيات الاستشرافية خلال العقود الماضية، عارضاً ثلاث تجارب استشرافية: "الكتاب الأبيض لحوض آنسي/ سويسرا" عام 2003، ومقاربة "يون 2015" التي اعتمدها إقليم يون الفرنسي، و"المقاربة الاستشرافية لغرفة الزراعة بإقليم سون ولوار الفرنسي" عام 2012. وأخيراً، يعرض ستيفان كودوييس مجالاً آخر ثرياً للدراسات الاستشرافية، وهو مجال العمران والتمدين، من خلال دراسة حالة مشروع استشرافي أنجزته المندوبية الوزارية لإعداد التراب وجاذبية الأقاليم: "الأقاليم 2040". وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا الفصل يعدّ من أكثر فصول الكتاب نجاحاً بثناء مقارنته، وتسليطه الضوء على البعد الأساسي للمقاربة التشاركية في المشاريع الاستشرافية الإقليمية.

ويجري عرض أحدث التقنيات الاستشرافية في الجزء الموالي من الكتاب، وفي مقدّمها "ورشات الاستشراف الإستراتيجي" التي يعكف على تقديمها نخبة من المتخصصين في هذا المجال (ستيفان أندري، وميشيل غودي، وريجين مونت)، عارضين لسياقها وأهدافها، ومفضلين جدول أعمالها، على النحو التالي: الأفكار الجاهزة، وعوامل التغيير، ومن التغيير إلى الفعل، ومن التغيير إلى السيناريوهات، وأشجار الكفاءات... إلخ. فيما تعرض بقية هذا الجزء بتفصيل لأمثلة عديدة من التقنيات الحديثة للاستشراف، بدءاً مع فرانسوا بورس وريجين مونت وعرضهما المقاربة الاستشرافية الإستراتيجية في أفق عام 2010 لشركة أودي إيف الفرنسية (EDF) (أكبر منتج للطاقة الكهربائية في العالم)، ثمّ مع فيليب ديستات الذي يعرض لبناء نموذج عملية استشرافية في إقليم والونيا البلجيكي، وروي بيتانكور الذي يتناول الاستشراف في مجال سياسات التشغيل، وأخيراً فرانسيسكو خوصي موجيكا الذي يسائل حضور الاستشراف بأميركا اللاتينية، أو ما يسميه "مستقبل المستقبل".

ويأتي الجزء الخامس والأخير من الكتاب في صورة مفاتحاتٍ استشرافية وتوصيات يستهلها أسعد صعب، مدير إدارة الإستراتيجية والاستشراف بشركة أودي إيف الفرنسية، من خلال عرضه الآفاق المستقبلية للاستشراف الإستراتيجي؛ ثمّ يتناولها ريل ميلر، مدير الاستشراف بمنظمة اليونسكو، داعياً إلى بلورة الدراسات المستقبلية وتحديدها داخل فرع معرفي منضبط؛ قبل أن يعود محرّر هذا الكتاب فيليب دورانس داعياً إلى إعادة التفكير في مفهوم القطيعة بصفاتها علامة مميزة لمجال الاستشراف؛ وليختم يانيك رومبالا هذه المفاتحات الاستشرافية بعرض الترابط الوثيق بين الاستشراف والخيال العلمي.

يجدر التنويه أخيراً إلى الأهمية البالغة لهذا الكتاب على مستويات عدّة، سواء من حيث قيمة الأسماء المساهمة فيه، أو من حيث اشتراك عدد من المؤسّسات العامّة والهيئات والأقاليم المهتمّة بوضع دراسات استشرافية وتنفيذها، أو من حيث تنوّع الأفكار والمقاربات المقدّمة، والتي تربط بين الاستشراف الإستراتيجي التقليدي للمدرسة الفرنسية للاستشراف والتنمية المستدامة، وترى أنّ المستقبل ليس رهيناً بامتلاك التكنولوجيا الفائقة بقدر ما يقوم على التوقّع والاستشراف والتخطيط للسبق في مجالات

اقتصادية واجتماعية وبيئية وسياسية ومعرفية معينة، سواء بالنسبة إلى الشركات أو المؤسسات أو الأقاليم أو الدول. كما تجدر الإشارة إلى أن نشر الكتاب قد تمّ بدعم من "حلقة رجال أعمال المستقبل" (Cercle des Entrepreneurs du Futur)، وهي هيئة فاعلة في مجال الاستشراف تهدف إلى التفكير والفعل على نحو جديد، والمساهمة في مجتمع المعرفة ودعم روح المبادرة، إضافة إلى المبادرات المحلية للتنمية؛ وهو ما ينمّ عن "توطين" الدراسات الاستشرافية بصفة متّسقة في سياقاتها الغربية، سواء من حيث تمويلها أو مرامها أو مآلاتها، وهو ما نطلّ أحوج ما نكون إليه في بلادنا العربية.